



د. غسان إسماعيل عبد الخالق

(جامعة فيلادلفيا - الأردن)

Email : dr.ghassan62@hotmail.com

## الملخص

يمثل هذا البحث مقاربة نقدية؛ تحليلية وتأويلية، لمنطلقات وواقع حال تجربة الشاعر العربي الكبير عبد الوهاب البياتي في مهجره الإسباني، والتي امتدت عشر سنوات، وتمخضت عن ديوان شعري واحد هو (بستان عائشة). وقد خلص الباحث من خلال هذه المقاربة، إلى تأكيد إخلاص البياتي كغيره من شعراء العربية الكبار لفاعلية (صيانة الحنين)، والتي تظاهرت لدى البياتي عبر الانشداد إلى المكان الأول / بغداد بوصفه مركز أحلام الطفولة، وإلى الانشداد إلى الحبيبة الأولى / عائشة بوصفها مركز خيال الزمن الجميل.

**الكلمات المفتاحية:** الحنين، عبد الوهاب البياتي، ديوان "بستان عائشة"، إسبانيا،

بغداد

## Abstract

*This paper adopts a critical, analytical, and interpretive approach to the origins and reality of the experience of the great Arab poet Abd al-Wahhab al-Bayati during his residence in Spain, which lasted for ten years, and resulted in one poetry collection, Aisha's Orchard (Bustan Aisha). The researcher confirms al-Bayati's loyalty, similar to other great Arab poets, to the effectiveness of "nostalgia maintenance," which is demonstrated in al-Bayati through the attraction to the first place, Baghdad, as the center of childhood dreams, and to the first love, Aisha, as the center of the beautiful time imagination.*

**Keywords :** Nostalgia, Abd al-Wahhab al-Bayati, Bustan 'A'isha (A'isha's Garden), Spain, Baghdad

## المهجرية الأولى والحنين القسري

يكاد أوائل الدارسين لظاهرة الشعر المهجري العربي في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، يجمعون على أن هذه الظاهرة التي بلغت مداها عام 1913م، ترتبط بسوريا ولبنان -بوجه خاص- دون غيرها من الأقطار العربية، نظراً لاصطلاحهما المباشر باستبداد الحكم التركي<sup>(1)</sup>.

كما يكادون يجمعون على أن السعي لتحسين شروط الحياة المعاشية وللتمتع بحرية التفكير والتعبير<sup>(2)</sup>، هما الدافعان الرئيسان اللذان دفعا بالآلاف من العرب إلى (الأمريكيتين)، وبينهم شعراء أو أسر أطلعت شعراء لم يلبثوا أن استرعوا انتباه زملائهم في الوطن العربي، بروابطهم الأدبية وأشعارهم التي انطوت على خصائص فنية جديدة، عكست إيماناً حاراً بالعروبة، وإحساساً مرهفًا بالطبيعة، واصطداماً بقيم الحضارة الغربية لسوغراقاً في عالم النفس وعلاقة الإنسان بالكون، واعتناءً بالقضايا الاجتماعية، وتفاؤلاً بمستقبل الإنسان<sup>(3)</sup>.

لقد استأثر موضوع الحنين إلى الأوطان، باعتناء الدارسين لظاهرة الأدب المهجري، وتراوح هذا الاعتناء بين الاقتصار على التنويه بأصوله البعيدة في الشعر الجاهلي فالإسلامي، وبين محاولة التفريق بين دوافع ومضامين الحنين: القديم والحديث، على نحو لا يخلو من المغالطة والتعسف<sup>(4)</sup>؛ إذ لم يدخر أحد الدارسين

(1) انظر على سبيل المثال:

- أنس داود، التجديد في شعر المهجر، ص 50.

- فريد جحا، الحنين واللقاء في شعر المهجر، ص 7.

(2) المرجعان السابقان على التوالي: ص 67، ص 7.

(3) أنس داود، التجديد في شعر المهجر، ص 121.

(4) فريد جحا، الحنين واللقاء في شعر المهجر، ص 11-13.

- أنس داود، التجديد في شعر المهجر، ص 171-184.

وسَّعاً لإفراغ شعر الحنين - في العصر الجاهلي مثلاً - من مضمونه الإنساني الوجودي العميق، وإسباغ العمق الفلسفي على شعر المهجر، بدعوى أن (الشعر القديم يصوّر الغربة المكانية، بينما يصوّر شعر المهجر الغربة النفسية الحائرة اللاذعة... هناك غربة بسيطة ساذجة، وهنا غربة معقدة بعيدة الأغوار... غربة مفلسفة عميقة... غربة عن العالم، تستبطن الذات وتسبر أغوار الوجود بحثاً عن موطن آمن، وفي ظل هذه الغربة يبدو الحنين إلى الطفولة حينئذٍ إلى ميلاد جديد، بديلاً عن الذات المفقودة في الخضم المتشابك)<sup>(1)</sup>.

ولا يخفى على الناقد المنصف، ما في هذا الاستنتاج من قلب واضح للأحكام، أساسه ضحالة الوعي الفلسفي بالمكان، و(انتصار) - بلغة النقاد القدامى - لتجربة شعرية عربية محدثة، ينقضه الاستقراء والتحليل الموضوعي الذي يفضي - في الأغلب - إلى الاعتقاد بأن الاتجاه إلى شعر الحنين والغربة في تجربة المهجر، لم يعد كونه رد فعل مباشر للابتعاد القسري عن الوطن، وأنه يتسم بوجه عام - فهناك استثناءات - بأسلوبية غنائية تفيض برؤى رومنتسية مكشوفة، خلافاً لظاهرة المهجرية الجديدة في الشعر العربي التي وإن كانت ما تزال تفتقر إلى الدرس المتعمق، إلا أنها تستدخل - في حدود تجربة البياتي على الأقل - وعلى نحو جدي وحلاق، فاعلية الحنين في الشعر العربي القديم، من موقع الحاضر الفلسفي والفني.

ولعلّ سمة الوعي الإرادي للذات، بغية استعادة المكان عبر الابتعاد عنه، هي أبرز ما يمكن الخروج به من سمات الظاهرة المهجرية الشعرية الثانية أو الجديدة، امتثالاً منها لتلك الفاعلية الثابتة في وعي ولا وعي الشاعر العربي القديم - الحديث. وإن

(1) أنس داود، التجديد في شعر المهجر، ص 174.

كان هذا لا يلغي القول بتلك الأسباب الموضوعية الطافية على السطح، مثل الاضطهاد الفكري والسياسي وضيق أسباب العيش.

### عُود إلى بدء؛ فاعلية (صيانة الحنين)

تمثل فاعلية صيانة الحنين، إحدى أبرز الدوافع والموضوعات في الشعر العربي القديم والمعاصر، وإذا كان عبد الوهاب البياتي يعدُّ أحد حراس هذه الفاعلية في الشعر العربي الحديث، فإن الكلام على حراسة هذه الفاعلية في الشعر العربي القديم، يمكن أن يستغرق آلاف الصفحات، مما سيضطرني إلى التمثيل لهذه الظاهرة بأمثلة دالة. يبدو الاستهلال الظللي للقصيدة العربية في العصر الجاهلي، أبلغ الشواهد دلالة على تأصل فاعلية الحنين لدى الشاعر العربي، كما يبرز أكثر مراحل الشخصية العربية امتلاءً بالحنين، على نحو لا يخلو من مفارقة ذات مغزى؛ إذ كلما اتسم الفضاء المكاني بالاتساع والحواء والقابلية للتحوّل كان الحنين أكثر توتراً وعنفًا، لأن هذا الحنين غالباً - موجّه للإنسان ذاته (الآخر / الحبيب، الأنا / الشاعر) وللزمن الذي أظلّ هذا الشاعر وأظلّ قرينه. ولعل الاستهلال المشهور لطرفة ابن العبد:

لخولة أطلال ببرقة ثمهد      تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد<sup>(1)</sup>

يفيض على نحو فذ، بذلك الحنين للزمن الجميل الذي أظلّ الشاعر مع محبوبته، لكنه غدا بعيداً وقصياً إلى الحد الذي تظاهر معه عبر ما تبقى من أماكن توشك أن تمحى، ليحى معها الشاعر وتسقط ذاكرته من (مد) الزمن الظاهرة، لكنها ستظل تسري في (باطن) هذه اليد بلا ريب.

وفيما راح هذا الحنين الذي غدته الصحراء وذاكرة البدوي ينحسر بالتدرّج، بحكم تكاثر المراكز الحضرية داخل الجزيرة العربية وخارجها، واتجاه معظم الشعراء إلى

(1) شرح ديوان طرفة بن العبد، سيف الدين الكاتب وزميله، ص 11.

دولة الخلافة ذات الطموح الواضح لإزالة رسوم الماضي البدوي وتثبيت وعي الحاضر  
الملي، فإن ذاكرة شاعر بدوي غير رسمي مثل الصّمة القشيري ظلت وفيّة لهذه  
الفاعلية، فأعادتها بعثها بكل إيلاهما وتوتّرها<sup>(1)</sup>:

حَدَّثتْ إلى رِيَّاءٍ ونفْسِكَ بَاءَ أَدَّتْ      مِزارِكَ مِنْ رِيَّاءٍ وشِعباً كما مَعَا  
فما حَسَنٌ أنْ تَأْتِيَ الأمرُ طائِعاً      وتَجَوَّعُ أنْ دَاعِيَ الصَّابِيةِ أُمَّمَعَا  
فما ودَّعَا نَجْلاً ومَنْ حَلَّ بالحَمَى      وَقَلَّ لِنَجْدٍ دَعْنَدْنَا أنْ تَوَدَّعَا  
بنفْسِي تَلِكِ الأَرْضِ ما أَطِيبَ الرِيَّ      وما أَحْسَنَ المِصْطَافِ والمُتَرَبِّعَا  
وليسَتْ عَشِيَّاتِ الحَمَى بِرِواجِعِ      إِلَيْكَ وَلَكِنْ حَلَّ عَيْنِيكَ تَدْمَعَا  
ولما رَأَيْتِ البِشْرَ أَعْرَضَ دُونَنا      وَجَالَتْ بِناتِ الشُّوقِ يَحْنَنُ نَزْعَا  
بَكَتْ عَيْنِي اليَسْرَى فَلما زَجَرْتِها      عَنِ الجَهْلِ بَعْدَ الحَلْمِ أَسْبَلْتِنا مَعَا  
تَلَفْتُ نَحْوَ الحَيِّ حَتَّى وَجَدْتِني      وَجَعْتِ مِنَ الإِصْغاءِ لِيَّةً ما وَأَخْدَعَا  
وأذْكَرُ أَيامَ الحَمَى ثَمَّ انْتَنِي      عَلَيَّ كَبِدِي مِنَ خَشْيَةِ أنْ تَصَدَّعَا<sup>(2)</sup>

إن هذا الانبثاق الجديد في المكان الحاضر، وفي اتجاه معاكس للزمن الماضي  
المفقود، لم يجني دولة الخلافة معاضداً قوياً ما فحسب، لكنه وجد في التيار الشعري

(1) ت95، من شعراء العصر الأموي، ومن العشاق المتيامنين، كمن بادية العراق، وخرج غازياً فمات.

(2) الصّمة بن عبد الله القشيري، حياته وشعره، ص110-111.

المحلث داعية وسندا، بدءاً ببشار مروراً بأبي نواس وانتهاءً بما لا يحصى من الشعراء (المولدين).

على أن المفارقة الثانية الأكثر جدارة بالاعتناء، تتمثل في تعاضم الاتجاه السلفي في أوساط المحلثين والفقهاء، كرد فعل مباشر ظاهره استعادة الأصل وباطنه الاحتجاج على تحوّل الدولة التي تستند شرعيتها إلى هذا الأصل، من نظام خلافة توجهها الفطرة، إلى نظام مديني يهدّد بتدمير موضوع الحنين، فكان أن انطلقت حركة عارمة من الارتحال في أوساط هؤلاء المحلّثين والفقهاء من وإلى الجزيرة العربية: الذين يغادرونها يفعلون ذلك كي يكون بوسعهم استعادتها والحنين إليها، والذين يصلون إليها يفعلون ذلك كي يكون بوسعهم استعادتها والحنين إليها لاحقاً. وما لبثت (الرحلة) أن أصبحت أحد الشروط الضرورية لطالب العلم، كما ازدادت أهمية السماع بازدياد (التدوين)، مما يؤكّد الانشداد إلى (المشاهدة) البدوية في قبالة (المكتوب) المديني.

وقد عزّز هذا التقليد بأحاديث منسوبة للرسول (P) -اطلبوا العلم ولو في الصين-، وأشعار تنسب لعلماء كبار مثل الشافعي رحمه الله -تعب عن الأوطان في طلب العلى-، وأخبار تروى عن صوفيين يجوبون القفار، تحضّ في مجملها على الاغتراب في طلب العلم وتنوّه بفضل الغريب.

هذه الوجهة السلفية من الحنين في أوساط المحلّثين والفقهاء، لم تحفّ شاعراً مبدعاً مثل أبي تمام الذي انتابته الرغبة في التعبير عن فاعلية الحنين، ولكن ثقافته الفلسفية المنطقية حالت دون تورطه في أيّ من الاتجاهين: اتجاه النفي المطلق للحنين كما تبلى لدى أبي نواس -عاج الشقي على رسم يسائله- واتجاه الاستعادة السلفية للحنين كما تبلى لدى المحلّثين والفقهاء، فكان عليه أن يعيد ترتيب علاقات هذه الفاعلية على نحو لا يبلغها من جهة، ولكنه ينظّمها من جهة أخرى فقال:

"تقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحبُّ إلاّ للحيب الأبل

كـم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحينئذ أبعداً لأول منزلٍ"<sup>(1)</sup>

إن الجديد في هذه الرؤية للحنين، يتمثّل في استيعابها والتكيّف معها، بدلاً من الانجراف معها أو الثورة عليها، رغم الإحساس الممض بثقلها، وإطلاق العنان لإمكانيتها لمختلورتها ومعابيتها إنسانيةً وزمانيةً، عبر إعطاء الوعي فرصة للتنقل اللامحدود في المكان؛ حيث يتلبّس الحبيب الأول بدلالة الزمن الماضي الذي يتموضع تاليّاً في المنزل الأول.

هذه مقاطع مكثفة جداً من الموروث الشعري الذي استند إليه عبد الوهاب البيّاتي، لصيانة فاعلية الحنين في تجربته الشعرية التي تظاهرت عبر أكثر من معنّب، لكننا سنقتصر الكلام في هذه المقاربة على رصد الكيفية التي تظاهرت وفقها فاعلية صيانة الحنين لديه في المعنّب الإسباني.

بحثاً عن (بغداد)... بحثاً عن (عائشة)

يتطلب الولوج إلى جوهر تجربة البيّاتي في إسبانيا، إعادة تركيب شعرية المكان

لديه، بدءاً من قصيدته الوامضة (بغداد) حيث يقول<sup>(2)</sup>:

مهما طال حوار الأبعاد

فستبقى بغداد

شمساً تتوهج

نبعاً يتجدّد

(1) أخبار أبو بكر الصولي، أبي تمام، ص 263.

(2) عبد الوهاب البيّاتي، الأعمال الشعرية، ج 2، ص 482.

ناراً أزلية

رؤيا كونية

لطفولة شاعر

وفيها يبدو المكان (بغداد) معادلاً موضوعياً لمركز الحنين (الطفولة)، التي لا يَلْخُر الشاعر وسعاً لتضمينها معاني الانبثاق الأبدي والتدفق الدائم، رغم بعد الشقة وتعدّد زوايا الرؤيا.

إن طفولة الشاعر البعيدة هي بغداد أو أحد أحيائها (باب الشيخ) الذي يغدو قريباً ما بوصفه رؤيا وعصياً على الإمساك لأنه بعيد في آن. ذلك أن خيط الذاكرة يتيح للشاعر أن يبعث طفولته على الرغم من البعد المكاني، لكنه -خيط الذاكرة- أوهى من أن يثبّت تلك الرؤيا<sup>(1)</sup>:

حُبٌّ من "باب الشيخ" ورائي

يمتد كخيط مسحور

أمسكه، فأرى بيته ما يغرق بالنور

أتطلّع نحو الباب المغلق

في عيني طفلٍ مبهور

أتوقف عند السور

أصرخ، لكنّ الخيط المسحور

يصبح جرحاً في قلبي

ورماد بخور.

(1) عبد الوهاب البياتي، الأعمال الشعرية، 511/2.



ولكن بغداد مع ذلك، بغداد الملتبسة بطفولة الشاعر، ليست بنت الحاضر، بل هي بغداد الماضي، تلك التي كانت بنت سلطانها تطل من شرفة قصرها تحاول أن تحظى بعاشق عاثر، لكن العاشق المنكسر يظلّ مشدوداً لأسطورة انقلاب الحال في (ألف ليلة وليلة)! إنه يحلم بتأجيل امتلاك بنت السلطان، ريثما يمتلك المدينة<sup>(1)</sup>:

عائشة بنت السلطان

كانت من أعلى نافذة في قصر السلطان

تدنو لخيول السلطان

وعبيد السلطان

كانت ترشقني - وأنا أبكي

تحت النافذة العليا

مكسور القلب - بوردة

لكني أتجاهلها،

وأقول لنفسي

وأنا أبكي في حرقة:

ماذا لو أسرحت حصاني وغزوت البلدة!؟

نعم، إن بغداد العصبية على المشول الآن، هي بغداد الزمن الذي أظللّ حكايات الطفولة المبهورة بتفاصيل (ألف ليلة وليلة)، إنها (الطلسم) الموزع بين قصص العشاق وأحاديث السحرة وملوك الجان ومصباح علاء الدين واستغاثات أبناء الطريق<sup>(2)</sup>:

<sup>(1)</sup>عبد الوهاب البيّاتي، الأعمال الشعرية، 514/2.

<sup>(2)</sup>عبد الوهاب البيّاتي، الأعمال الشعرية، 524-523/2.

أحرقني برقُ العشق، صغيراً  
أحرقني الصمتُ / الطلسمُ / السحرُ  
الأسودُ في قاع مدينتنا / مصباح علاء الدين  
أنين الأشجار المقتولة في السرداب  
صيحات الجنّي المحبوس / نداء الباعة في الأسواق  
موت الأطفال / العشاق / هديل حمام الأبراج  
صرخات الصوفي المأخوذ المأخوذ بذكر الله  
صلوات الأسحار  
قصص الجدّات

ترى لماذا تغدو هذه المدينة عصيّة كلّما كبر الشاعر؟ ألم تبدُ في متناول اليد  
حينما كان الشاعر صغيراً رغم بؤسه وفقره؟ إنه سؤال يمض الشاعر ويدفعه إلى  
الإجابة بسؤال<sup>(1)</sup>:

أحرقني البؤس / الضوء / التجوالُ  
بجذء مثقوب تحت الأمطار  
أيّام الأعياد  
أنوار مآذن بغداد  
باب الشيخ / نذور الفقراء  
أحرقني برق العشق  
صغيراً ا كنت  
وكانت

<sup>(1)</sup>عبد الوهاب الببائي، الأعمال الشعرية، 525/2.

فبماذا تأمرني، سيدتي، الآن؟

إنه سؤال يبرز حجم ارتباك وعي الشاعر جرّاء افتقاده مدينة الطفولة، مدينته الماضية، مدينته الفاضلة التي راح ينسب لها ما شاء من مزايا، في مواجهة مدينة الواقع الحاضر الخاوية التي لم يعد متأكداً من هويتها فراح يلتقط (صورة جانبية)<sup>(1)</sup> لها:

مقبرة تعلوها مقبرة، بينها

الحب / الموت / البشر الأحياء

والشحاذون وأهل اليأس البخلاء

فإذا ما صحت بأعلى صوتك

عاد الصوت مليئاً بلهات الموتى

وسعال شتاء السنوات

وإذا ما حاولت فراراً

طارذك الباعة والعيّارون الشطار

في تلك المقبرة الكبرى

في تلك الطاحونة

في تلك الصحراء

نحرت آلهة الشعر

ومات الشعر في حانوت الخمار

لقد أضع الشاعر مدينته (طفولته العزيزة) وسط ركام من (مدن الخوف) التي تعيش على (الإشاعات / الأكاذيب / الأقاويل / الخواء وعلى دم الإنسان والحق

<sup>(1)</sup>عبد الوهاب البيّاتي، الأعمال الشعرية، 528/2.

المضاع. وتنام في خوفٍ على باب الطواغيتِ الصغارِ وبعِ ضُوهها المذيعُ / تفتح ما تشاء!!<sup>(1)</sup>.

لم يعد بوسع الشاعر والحال هذه، سوى الابتعاد والحلم بإمكانية (الولادة في مدن لم تولد). ولعل الرحيل إلى غرناطة يجعل بغداد أقرب إليه مما هي الآن. فقد قالوا قديماً: شلّة القرب حجاب. إنها محاولة لاستعادة الطفولة الضائعة والزمن الضائع والمدينة الضائعة وجعلها مجتمعة أقرب ما يكون، عبر الانتقال في الاتجاه المعاكس لأبعد ما يكون<sup>(2)</sup>:

أولد في مدن لم تولد

لكني في ليل خريف المدن العربية

-مكسور القلب- أموت

أدفن في غرناطة حي

وأقول:

"لا غالب إلا الحب"

وأحرق شعري وأموت

وعلى أرصفة المنفى

أنهض من بعد الموت

لأولد في مدن لم تولد وأموت

قلنا آنفاً إن فاعلية الحنين لدى الشاعر العربي، تبلغ مداها الأبعد حينما تستعيد لحظتها البدوية الأولى، حيث يتوضّع الزمان في المكان ويغدو المكان الهرم معادلاً موضوعياً مزدوجاً للإنسان (المحجوب والشاعر) إلا أن البياتي يحدث إزاحة

<sup>(1)</sup>عبد الوهاب البياتي، الأعمال الشعرية، 455/2.

<sup>(2)</sup>عبد الوهاب البياتي، الأعمال الشعرية، 470/2.

جوهرية ضمن هذه الفاعلية حينما يحتفظ للشاعر بسمة التقادم، فيما يطلق للمحبوب سمة التجدد واستمرار الحضور في الزمن الطيب، وسمة النقيض الخصب المزروع في قلب الجفاف. وعائشة هي امرأة التحولات والتجليات والصحراء، هي ذلك المكان الأسطوري الشاسع الذي تتعين باتساعه كل الأماكن الخاصة والصغيرة<sup>(1)</sup>:

قالت: سأقتله

وأحمل رأسه لقبيلتي

صنماً، لتعبده

وتحرقه، إذا اقتلت

وفي الصحراء أبني معبداً للحب،

إن عائشة هي وحدها -رغم قسوتها- من يجرس أسرار طفولة الشاعر<sup>(2)</sup>:

سأموت حباً ما تحت خيمتها

أعود إلى الطفولة

راعياً ما غنم القبيلة

مثل هارون الرشيد

وهي وحدها من يملك أن يرسم النسخة الألى من وجه الشاعر ويُعيدُه إلى

لحظة البداية<sup>(3)</sup>:

ترسمَ وجهَ ملاكٍ لم يولد بعد

<sup>(1)</sup>عبد الوهاب البيّاتي، الأعمال الشعرية، 452/2.

<sup>(2)</sup>عبد الوهاب البيّاتي، الأعمال الشعرية، 457/2.

<sup>(3)</sup>عبد الوهاب البيّاتي، الأعمال الشعرية، 533/2.

قدّيساً يتعبّد

بدويّاً، برابته، يبكي هنأً أو دعد

أليست هي صانعة ألم الشعراء وفرحهم في آن؟ أليست هي باعثة فضائهم  
البدوي الشاسع مثل وحدتهم<sup>(1)</sup>؟

يتوجّع العشاق في صحراء وحدتهم

يجوبون المساءات الكثيبة

حاملين جحيمهم

متوحدين / مهمشين

لبثوا / بفعل تواصل الأزمان

في ملكوتهم / لا يكبرون

شابت نواصي الأرض

دب الموت في الغابات

فانقرضت

وهم يتفتحون ويزهرون ويشمرون

وبسحرهم قهروا التعاسة

واصلوا الإبداع

في صحراء وحدتهم

وكانوا / ما يكون.

وهي وحدها من يملك أن يستبد ويصفو<sup>(2)</sup>:

قالت: سأشقه

<sup>(1)</sup> عبد الوهاب البياتي، الأعمال الشعرية، 491/2-492.

<sup>(2)</sup> عبد الوهاب البياتي، الأعمال الشعرية، 458/2.

بليل ضفائري

مهما أطلت الانتظار

وأعيده حجراً على درب القوافل

سدرةً / شيحاً وقيصوماً

وزهرة جلنار

على أن الشاعر وحده يملك أن يعرف أن وراء تحولات عائشة وتقمصاتها،  
معاناة أنثوية طاغية تقبع خلف كل هذا الاستبداد<sup>(1)</sup>:

تخفي وراء قناعها وجه الملاك

وملامح الأثني

التي نضجت على نار القصائد

أيقظت شهواتها ريح الشمال

فتجوهرت تفاحة / حمراً

وتقمصت كل الوجوه

### حنين البياتي

يبدو أن تفكير البياتي في الاتجاه إلى إسبانيا قد بدأ قبل نهاية عام 1979،  
فقد سبق له أن زار إسبانيا في عام 1972، وهي زيارة توجت علاقة حميمة له مع  
الأدب الإسباني بدأت منذ الطفولة (1936)، حينما قيّض له الاطلاع على  
ترجمات لنماذج من الشعر الإسباني، وبعد ذلك بخمس سنوات (1941) حينما  
قيّض له الاطلاع على ترجمة لرائعة سرفانتس (دون كيشوت)، وعبر قصائده في ديوان

<sup>(1)</sup>عبد الوهاب البيّاتي، الأعمال الشعرية، 460/2.

(الموت في الحياة) الذي أمارت اللثام عبره عن شخصية عائشة وعن توفه إلى غرناطة وإعجابه ب(لوركا). ثم عبر قصيدته (إلى رفائيل البرقي) في ديوان (قمر شيراز)، ثم عبر (النور يأتي من غرناطة) في ديوانه (مملكة السنبله)<sup>(1)</sup>.

ولا ريب في أن اتجاه البياتي إلى إسبانيا، قد استند إلى موروث عتيدي من الحنين المنطلق باتجاهين: من الغرب الأندلسي باتجاه الشرق العربي الطللي، ومن الشرق العربي الطللي باتجاه الغرب الأندلسي. حنين ولده الانبئات الجغرافي عن الأصل في أعقاب الفتح، وأذكاره الانقطاع السياسي بين خلافتين، ورسخه الاقتصار العقائدي على مذهب مالك.

ويمكن التذليل عليه بشواهد مقتضبة بدءاً بأبيات عبد الرحمن الداخل المشهورة<sup>(2)</sup> وانتهاءً بقصيدة ابن زريق البغدادي ذائعة الصيت، وبذلك التنقل الدائب بين الشرق والغرب الذي اصطلى به طلاب العلم والمحدثون والفقهاء والأدباء، حاملين معهم كتبهم وأسانيدهم ومروياتهم.

إن المسافة الحقيقية الفاصلة -في نظرنا- بين شعر الحنين في المهجر وشعر الحنين في العصور العربية الأولى، تكاد تتكرر بين البياتي وغيره من الشعراء فيما يتعلق بالمكان؛ إذ خلافاً للشعور الرومانسي المناوئ للمكان الحديث وفق ثنائية (الريف / المدينة) الذي طبع بوجه عام مواقف كثير من الشعراء العرب المعاصرين، فقد ظلت المدينة بالنسبة للبياتي إرهاباً لمتخيل له المثالي (المدينة الفاضلة) واحتمالاً لإمكانية

(1) من مقابلة شخصية مع الشاعر تمت بتاريخ 1998/6/25 في غاليري الفينيق / عمان.

(2) حيث يقول:

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل  
وطول الثنائي عن بني وعن أهلي  
فممثلك في الاقصاء والمتأى مثلي

تبنت لنا وسط الرصافة نخلة  
فقلت: شبيهي في التغرب والنوى  
نشأت بأرض أنت فيها غريبة



استعادة (ألف ليلة وليلة)، رغم كل ما يشوب هذا الاحتمال من وعي ممض بسطوة الزمن وانقضاء الطفولة.

ولعل الدكتور إحسان عباس، أبرز من تنبّه لهذا المنحى العام في تجربة البياتي حيث أكد اختلاف موقف البياتي من بغداد عن موقف كل من السيّد أب وحجازي والحيدري من المدينة، فهو -ابتداءً- لم يعان نفوراً منها، وإن كان يدرك أن صرعاها "أجساد النساء والحالمون الطيبون" ومن ثم كانت بغداد لديه عدة مدن لا مدينة واحدة... ورغم أنها قد تجمع بعض المتناقضات... فإنه مشدود بالحنين الجارف إليها<sup>(1)</sup>.

وإذا كان الحلم باستعادة (ألف ليلة وليلة) هو المعادل الموضوعي للتمسك بالطفولة الأبدية، فإن من الصعوبة بمكان الاحتفاظ بهذه الطفولة الأبدية بعيداً عن الحب الأول المستمر بلا حدود، الحب الذي راحت عائشة تمثل مجازاته منذ (الموت في الحياة) ثم ما لبثت أن استقرت كرمز قارٍ ومطابق له، استناداً إلى (فكرة الحلول وإمكانية البعث والعودة في الأشياء [فلقد] ضى البياتي عمره راحلاً، بحثاً عن حب لا يموت، وامرأة مستديمة المودة دون أن تطالها الشيخوخة، فكانت تلك المرأة عائشة، حينما دخلت محراب العشق الصوفي، فحلّت روحها في نساء العالم جميعهن، فكانت "الارا" أو "ليلي" أو "هند" وكانت خاتمة العقد<sup>(2)</sup>.

إن هذا الاستدعاء المستمر للحضور وبوحي من (تجربة بعض الشخصيات الصوفية المعروفة في الموروث العربي والإسلامي من مثل الحلاج ومحي الدين والسهروردي وجلال الدين الرومي وفريد الدين العطار)<sup>(3)</sup> يستجيب لذلك التساؤل

(1) د. إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، ص 126.

(2) د. سامح الرواشدة، شعر عبد الوهاب البياتي والتراث، ص 54.

(3) المرجع السابق، ص 40.

الذي طرحه أوستين وارين: (هل يوجد أي معنى هام يفترق فيه "الرمز" عن "الصورة" و"المجاز"؟).

وقد أجاب عنه قائلاً: نحن نفكر مبدئياً بمعاودة الرمز وإلحاحه، فالصورة يمكن استشارتها مرة على سبيل المجاز، لكنها إذا عاودت الظهور بإلحاح، كتقدم وتمثيل على السواء، فإنها تغدو رمزاً، قد يصبح جزءاً من منظومة رمزية أو "أسطورية" وما يحدث بتكرار ملح هو أن ما يسمى في أعمال الكاتب الأولى "خصائص" ينقلب إلى رموز في أعماله المتأخرة<sup>(1)</sup>.

وما بين (باب الشيخ) في بغداد وقرطبة في (إسبانيا)، ثمة فراغ شاسع في الزمان والمكان، لا يملؤه إلا البيت القديم، بيت الطفولة، لأنه (مكان الألفة، ومركز تكيف الخيال، وعندما نتعد عنه نظل دائماً نستعيد ذكراه، ونسقط على الكثير من مظاهر الحياة المادية [فيه] ذلك الإحساس بالحماية والأمن اللذين كان يوفرهما لنا)<sup>(2)</sup>.  
وبتعبير آخر فإن (البيت - العش لا يكون حديث العهد أبداً، فبإمكاننا أن نقول إنه المأوى الطبيعي لوظيفة السكنى ... إننا لا نعود إليه فقط، بل نحلم بالعودة إليه، كما تعود العصافير إلى أعشاشها والحملان إلى الحظيرة. علاقة العودة هذه تسم عدداً لا حصر له من أحلام اليقظة. لأن العودة الإنسانية تأخذ مكانها في إيقاع الحياة الإنسانية، وهو إيقاع بالغ القدم. وهو خلال الحلم يلغي كل غياب)<sup>(3)</sup>.  
أخيراً، فإذا كان (حلم المدينة الفاضلة يجسد، أيضاً، استعادة ذكرى مرحلة الأمومة، وأن بؤس الشاعر يبدأ عندما أخذ المجتمع الأبوي ينتصر ويسود...)<sup>(4)</sup> فإن ذلك التلاصق بين بغداد وعائشة من جهة، وذلك الامتثال لاستبداد عائشة وتوحشها في وجه من وجوهها المتعددة من جهة أخرى، يبدو مفهوماً وبديهيّاً.

(1) رينيه ويليك وأوستين وارين، نظرية الأدب، ص 196-197.

(2) غالب هلسة، من مقدمة (جماليات المكان) لباشلار، ص 9.

(3) غاستون باشلار، جماليات المكان، ص 106.

(4) غالب هلسة، من مقدمة (جماليات المكان) لباشلار، ص 9.

## خلاصة

هكذا، وفي ديوان واحد (بستان عائشة)، لَمَّ عبد الوهاب البيهاتي صيانة الحنين، مستأنفاً ومطّوراً ومكثفاً هذه الفاعلية في آن؛ لم ينفك عن محاوره مركز هذا الحنين (بغداد) من جهة، ولم يجرب الانشاء الرومانسي الموارد باتجاه قصر الحمراء - كما فعل أحمد شوقي - أو عبر هجاء المكان الآخر (إسبانيا)، بل حتى على هذا المكان وعلى شعرائه الطيبين وظل مخلصاً للبيتين اللذين أبدعهما أبو تمام:

"نقل فؤادك حيث شئت من الهوى      ما الحُبُّ إلاّ للحيب الأبي  
كم منزل في الأرض يألفه الفتى      وحينئذٍ أبداً لأول منزل"

ديوان شعري واحد فقط عبر عشر سنين، يضم اثنتين وستين قصيدة قصيرة بوجه عام<sup>(1)</sup>، تتسم باقتصاد لغوي بالغ وتركيز عالٍ للتراكب الصوري، وتزواج على نحو باهر بين غنائية الطفولة وإيقاعها من جهة ورمزية التجربة وكثافتها من جهة ثانية، وتؤكد مقولة لا تصعب إحالتها إلى مرجعها رغم بعض التصرف: كلما اتسعت المسافة تكثفت العبارة.

(1) ذهب بعض الدارسين إلى إلحاق قصائد "الدينونة" و"بانوراما أصيلة" بـ (بستان عائشة) مع أن فهرس الجزء الثاني من الديوان، يشير إلى أنهما منفصلتان عن (بستان عائشة).

### المصادر والمراجع:

- (1) أنس داود، التجديد في شعر المهجر، دار الكتاب العربي، القاهرة، د. ت.
- (2) فريد حجا، الحنين واللقاء في شعر المهجر، مطبعة الضاد، حلب، 1961.
- (3) طرفة بن العبد، شرح ديوان طرفة بن العبد، قلم له وعلّق حواشيه: سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ط1، 1989.
- (4) الصّمة بن عبد الله القشيري: حياته وشعره، جمعه وحققه وشرحه وصنع فهارسه: د. خالد الجبر، منشورات جامعة البتراء/ عمادة البحث العلمي، عمان، ط1، 2003.
- (5) عبد الوهاب البياتي، الأعمال الشعرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، طبعة مزيدة ومنقحة، 1995.
- (6) إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط1، 1978.
- (7) سامح الرواشدة، شعر عبد الوهاب البياتي والتراث، وزارة الثقافة، عمان، ط1، 1996.
- (8) رينيه ويليك وأوستن وارين، نظرية الأدب، ترجمة: محي الدين صبحي، مراجعة: حسان الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط3، 1989.
- (9) غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1984.
- (10) الصّولي (أبو بكر)، أخبار أبي تمام، شرح وتحقيق: خليل محمود عساكر ومحمد عبده عزام ونظير الإسلام الهندي، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة للنشر، ط1، 1937.